وحينما اراد ان يعود عاقلا

اصيب بالجنون ،

ان الجنون ذريعة لقول الحقيقة ، مثلما هو وقاية من عواقبها . فالشاعر الذي جن وقال الحقيقة لا بد وان يظل مجنونا فعلا حتى يفلت من العقاب ... ولعله جن حين فكر بأهوال فعلته ، لان الكلمة الوحيدة التي تنجو من سوط الجلاد ، هي الكلمة المومس التي تقف « تحت المصابيح الزرقاء ، الكلمة ذات الثديين من المطاط » . وما اكثر الشعراء الانتهازيين الذين يسخرون اقلامهم لخدمة السلطة :

الله ... ثلاثة شعراء

الاول مات يدافع عن « سيف » الدولة

والثاني مات يدافع عن « طبل » الدولة

والثالث عاش يدافع عن « احذية » الدولة

وبالتأكيد هناك صنف رابع ، حدده معين بسيسو في آخر قصائد مجموعته الكاملة ، انهم « الشعراء الذين يغسلون ويكوون الملابس العسكرية » . بل ان عداء شاعرنا يضرب في اعماق التاريخ الى ما قبل الف عام ونيف ليلاحق الشاعر البحتري الذي وصفه النقاد بانه « متقلب الولاء » فيقول عنه :

كان يدرب القصائد

كيف تبيع راسها على الوسائد

وكيف تحلب الثديين في نعلي أمير

لا ريب في أن « عصر الكلاب » الذي نعيش فيه لا بد ان يفرز شعراء انتهازيين مستخذين ، يبيعون ضمائرهم وقوافيهم في حفلة البيع الشاملة التي يقوم بها المجتمع وحكامه ومفكروه وفقهاؤه . ثمة شيء توغل في كلمة هذه الامة فامتص ماءها واتى على لبها ونخر بذورها فلم يبق غير القشور الذابلة . هذه القشور يعيش الجميع ــ كل الطبقة الفوقية ــ بها وعليها . تتألف هذه القشور من الثقافة التافهة والشعر المدجن في زوائب السلطة ، والوعود الخلابة التي يبذلها الحكام للناس ثم ينكثون بها . فحين فقد المجتمع اي قوام يجعله يتماسك ، وقعت طليعته في دور فاسد من الكلام الفارغ على كل الاصعدة الايديولوجية والعملية والتنظيمية . لم تعد الكلمة تؤدي الى فعل او توجهه ، بل صارت الكلمة الفارغة تفضي الى كلمة جوفاء مثل سابقتها ، فكان الدافع الى الانجاز والاحساس به قد فقدا عند أمة بأسرها :

هو الكلام

بضاعة رديئة يا سيدي

بضاعة الكلام